د. انور عبد الملك

الخصوصية والاصالة

- ١ -

على رأس القضايا التي يواجهها الفكر والمفكر العربي اذ يتعرض لقضية النهضة بوجه عام ، والنهضة الحضارية بوجه خاص ،ذلك التناقض الذي يستشعره المثقف العربي بين مفهومي الـ « اصالة » والـ « عصرية » . ومرد ذلك الى ان الفكر العربي والمفكر العربي الذي يعي ذلك الفكر ويعبر عنه ويطوره انما يتحرك في اطار الفكر الاجتماعي والفلسفي الحديث ، وبالتالي لا يملك ان يخرج عليه ما دام انه قابل للمفاهيم والنظريات والمناهج المكونة لذلك الفكرالحديث . وفي هذا يكمن الخطر كل الخطر .

ان الفكر الاجتماعي والفلسفي الحديث يتكون من مجموعة من المفاهيم ، والنظريات ، والمناهج التي وجدت صورتها الحالية في الغرب ـ في اوروبا اولا ثم في امريكا الشمالية بعد حين ، في الفترة التي تتراوح بين القرن الخامس عشر والقرن العشرين . وهذه الفترة بالتدقيق انما هي مرحلة صعود الغرب الاوروبي الى مكانة الهيمنة على مصائر ومفاتيح العالم ، يعد بداية الاكتشافات البحريةالكبرى، وتكون البورجوازيات التجارية الوطنية في اوروبا وتكون الفلسفة الانسانية ، العقلانية ، الليبرالية ، العلمية ، على اختلاف مدارسها في اوروبا . ومعنى هذا ان ما نطلق عليه الفكر الاجتماعي الفلسفي لم يتكون كنتيجة للدراسة المقارنة للمجتمعات القومية والمناطق الثقافية والبيئات الحضارية المختلفة التي منها يتكون العالم ، تلك الدراسة التي وحدها يمكن ان تكون ارضية صالحة لاقامة الاحكام والتحليلات والقضايا النظرية العامة ـ وانما يمثل كما بينا مرارا وتكرارا بالتفصيل ، الرصيد الفكري المرحلي لمرحلة هيمنة الغرب ، وهو بالتالي يمكن اعتباره على احسن الفروض مجموعة من القضايا والافكار السابقة على المرحلة العلمية والتي يمكن ان تستعمل كافتراضات علمية فقط لا غير .

ومن بين هذه الافتراضات ان عملية التطور الاجتماعي ليس فقط عملية لا نهائية وانما هي ايضا عملية تتكون في الاساس من ارجاع جميع المجتمعات القومية والمناطق الثقافية والبيئات الحضارية بالقوة ـ القوة السياسية بمعناها الشامل ، وفي قلبها تلك العلاقة الحذرية بين السلطة السياسية والهيمنة الفكرية ـ الى نمط تكون وتطور المجتمعات الغربية المتقدمة . من هنا ، من هنا ،بالضبط، بدأ ذلك التناقض الذي قلناه بين الاصالة والعصرية . فالعالم العربي ، حول مصر ، يكون احدى دائرتين في الحضارة الشرقية بوجه عام الى جانب دائرة آسيا حول الصين . والعالم العربي ، حول مصر ، يستشعر تماما في اعماقه انه فقد الصدارة منذ القرن الخامس عشر بالضبط ، عندما « اصبحت بلاد مصر خيرها لغيرها » ، اي عندما اصبحت ديار الاسلام والامة العربية محلا لموجات متتالية من الغزو الصليبي والاستعمار التقليدي ثم الامبريالية والصهيونية .

وعلى هذا الاساس فان اشكالية حركة التحرر في العالم العربي ليست اشكالية الانتقال من مرحلة الاحتلال والتبعية والرجعية الى مرحلة الاستقلال والتحرر والثورة الاجتماعية ، كما هو الحال مثلا في امريكا اللاتينية او بعض القطاعات في افريقيا السوداء، وانما هي على وجه التدقيق ثورة من اجل الانتقال من التدهور الحضاري الى النهضة الحضارية . وجدير بالذكر هنا ان تعبير النهضة كان ولا يزال التعبير المركزي للمصطلح السياسي لنهضة مصر والعالم العربي منذ مطلع القرن التاسع عشر ، كما كان تماما في اليابان والصين وفيتنام وقطاعات من الهند . ان النهضة الحضارية هي وجهة ذلك النسيج المتشعب من الحركات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والوجدانية والدينية التي منها يتشكل معدن التحرك العربي المعاصر كله .

من هنا اذن ، كما بينا ،اصبحت الاشكالية الاساسية للتحرك العربي هي المحاولة على تبين الاجوبة الصالحة لتساؤلين : لماذا الانحطاط ؟ وكيف تتحقق النهضة ؟

فريق ذهب الى تاكيد الاصالة ، ووجد وجهته الفلسفية فيما اطلقنا عليه الاصولية الاسلامية . وفريق ثان وجد وجهته الفلسفية فيما اطلقنا عليه العصرية الليبرالية . وقد بينا ان تأزم الامبريالية، وما صاحبه من عجز البورجوازية المحلية في انجاز مهام الثورة الوطنية التحريرية حول الثلاثينيات من هذا القرن ، ترتب عليها تفرع كل من هذين الاتجاهين الرئيسيين الى شعبتين ، شعبة محافظة ، وشعبة راديكالية جذرية . فانقسم الاتجاه العصري الليبرالي الى شعبة محافظة تتكون من احزاب وايدولوجيات البورجوازية المحلية ، وشعبة راديكالية جذرية اتجهت نحو الاشتراكية بوجه عام والماركسية الوطنية بوجه خاص . وانقسم اتجاه الاصولية الاسلامية الى شعبة محافظة اتخذت وجه السلفية وايدولوجية الاخوان المسلمين ، وشعبة راديكالية جذرية اتخذت في الاساس وجه التنظيمات والايدولوجيات القومية العربية بوجه عام وما اطلق عليه الناصرية بوجه خاص .

ومن هنا تبرز صعوبة الاحتفاظ بالتناقض الذي ورثه العقل العربي من اطاره الغربي . لم تعد الاصالة حكرا على اتجاه او مدرسة وانما اصبحت القاسم المشترك لاهتمامات القطاع الاكبر من المدارس الفكرية والقوة السياسية المتحركة في عالمنا العربي اليوم . ولم تعد العصرية او المعاصرة حكرا على قطاع معين ، وانما اصبحت في الصف الاول من اهتمامات عين هذه المدارس الفكرية والقوى السياسية. حقيقة حاول الاتجاه السلفي ان يصبغ فكرة الاصالة بمضمون رجعي متخلف وكأنه في تناقض مع التحرك العصري ومقتضياته . كما ان الجناح المرتمي بين احضان الامبريالية الغربية ـ جناح العملاء الحضاريين ـ يتشبث باطروحة براقة ساذجة مؤداها ان العصرية تدير ظهرها الى الاصالة وكأنهما في تناقض تام .

لكن الارضية الاجتماعية والسياسية والفكرية في العالم العربي تبدلت جوهريا وفي الاساس وبوجه شامل ، كما قلنا وبينا مرارا . وليست موجة التحركات التي اعادت ولا زالت تعيد تشكيل المجتمعات العربية اليوم ، وليست السويس و٦ اكتوبر ، الا دليلا ساطعا على ذلك .

اذن يجدر بنا ان نتساءل : ما هي العلاقة بين الاصالة والعصرية ؟ واذا كان هناك تناقض لا يزال قائما ، سواء بشكل صريح او ضمني ، في العقل العربي ، فكيف يمكن الربط بين الاصالة والعصرية ؟ او بعبارة اخرى : كيف يمكن تحقيق العصرية الاصيلة

في عالمنا العربي اليوم ؟

- ٢ -

يمكن البحث عن الاصالة ، بعد الاعتراف بان العالم يتكون من وحدات قومية ومناطق ثقافية وبيئات حضارية متمايزة ، على مستوى او في صعيد الروح المجردة ، اي في مستوى مثالي . وهذا تماما ما فعله ويفعله المستشرقون ومن حولهم ذلك الحشد الهزيل من العملاء الحضاريين العرب فالاصالة عندهم اقرب ما تكون الى متحف للمخلفات والرواسب ، فكل ما هو متخلف وصالح لوقف التقدم - والذي تتكون منه العقلية الاسطورية على وجه التدقيق، يطلق عليه انه اصيل ، وتسلط عليه الاضواء ، وينكب عليه الدارسون والمنظرون باسم المحافظة على الشخصية القومية وجذور الماضي. الخ.

ومن ناحية اخرى جاء ماكس فيبر ، عميد الفكر الاجتماعي في الغرب المناهض لماركس ، يؤكد ان كل قومية تتشكل حول نمط مثالي idealtypus وان ذلك النمط المثالي هو معطى مجرد ، لم يتشكل ، وبالتالي لا يمكن اعادة تشكيله وفقا للتطور التاريخي المتميز لمجتمعات قومية بشرية متميزة . هكذا باخصار تم الالتقاء بين المستشرقين السلفيين والفكر الاجتماعي المثالي في وقتنا هذا.

ولا يخفى على الاذهان ما في هذه النزعة من ضرب الوحدة القومية والجبهة الوطنية المتحدة وتقسيمها بشكل مفتعل بين انصار الاصالة - بهذا المعنى المسمم المحدود - واخوانهم في الوطن . فهناك مثلا في افريقيا الشمالية على وجه التحديد ما يسمى « تعليما اصوليا » ، وهو التعليم باللغة العربية حسب المناهج الازهرية ، الى جانب التعليم العصري ، وكان الوطن يجمع بين قوميتين متميزتين حوله ، وكان التراث العربي الاسلامي يمثل الردة او وجهته الماضي ، وكان تقليد الغرب هو وحده الجدير بان ينعت بالعصرية. هكذا تنقسم الطبقة السياسية على بعضها ، في عملية انتحارية لا يفيد منها الا الاستعمار .

- ٣ -

وعلى هذا الاساس ، راينا ان نركز جهودنا الميدانية ومحاولاتنا النظرية حول اعادة تشكيل النظرية الاجتماعية عامة على اساس تفاعل المجتمعات في الشرق والغرب . وقد اقتضى هذا المجهود التركيز بشكل اساسي على مفتاح نظري قادر على الربط بين المجتمعات والمعطيات من ناحية ومستوى التعميم النظري من ناحية اخرى ، وكان هذا المفتاح هو : تصور الخصوصية ، وقد عبرنا عنه بشكل محدد عام ١٩٧٠ ، على اساس العمل القائم المنشور تباعا منذ عام ١٩٦٢ .

ان تصور الخصوصية يتشكل من مستويات ثلاثة :

١ - المستوى الاول يعنى بالتركيب الداخلي لتصور الخصوصية. وعندنا ان هذا التركيب الداخلي يهدف الى تبين النمط المتميز للاستمرارية الاجتماعية لمجتمع قومي معين . وهذا النمط انما هو على وجه التحديد نمط العلاقة المتبادلة والتاليف بين اربعة عوامل محورية تكوينية لكل مجتمع اي لكل استمرارية اجتماعية :

أ - عامل انتاج الحياة المادية لمجتمع معين في اطاره الجغرافي والايكولوجي (وهذا ما يطلق عليه اسلوب الانتاج) .

ب - اعادة انتاج الحياة (وهذا هو بعد الحياة الجنسية البيولوجية على وجه التحديد) .

ج - النظام الاجتماعي (السلطة والدولة) .

د - العلاقات مع البعد الزمني (نهائية الحياة الانسانية ، الاديان والفلسفات) .

ان تطبيق هذا المربع التكويني على المعطيات الاقتصادية الاولية سوف يثري تحليلنا للمجتمعات البشرية الى درجة كبيرة جدا .

٢ - المستوى الثاني يعني بتحريك هذا المربع التكويني عبر التطور التاريخي في اطاره الجغرافي المحدد :

أ - التطور التاريخي يضع في المقام الاول عنصر الزمان . ومن هنا الاهمية المركزية لمفهوم ما اطلقنا عليه « عمق المجال التاريخي» . فكلما تعمق ذلك البعد ، كلما امكن ان ندقق في ادراكنا لكيفية تحرك المربع التكويني للاستمرارية الاجتماعية . ومن حسن الحظ ان الغالبية الكبرى للمجتمعات البشرية تتكون من مجتمعات قومية تتراوح بين اقدم القوميات في العالم (مصر ام الدنيا) وبين المجتمعات القومية الحديثة في اوروبا الغربية مثلا .

ب - اما عنصر « المكان » - الذي عني به بطريقة مبدعة خلاقة الدكتور جمال حمدان حديثا - فانه يعني على وجه التحديد ان كل مجتمع بشري يحيا ويتطور في مجال جغرافي محدد بالنسبة للمجالات الجغرافية الاخرى ، وهذا ما تعني به الجغرافيا السياسية geopolitic ، كما انه يمارس وجوده وتطوره التاريخي في مجال جغرافي له تركيب داخلي محدد وهذا ما تعني به الايكولوجيا التي ترصد الامكانيات والطاقات البشرية والحيوية معا .

٣ - المستوى الثالث هو مستوى التفاعل الجدلي بين عوامل الاستمرارية وعوامل التغير . وعلى وجه التحديد : ان تحريك المربع التكويني على مدى التطور التاريخي في اطاره الجغرافي سوف يشكل العلاقات المتبادلة ، وبالتالي الاهمية النسبية ، لكل عنصر من العناصر التكوينية الاربعة بطريقة محددة ، مما يؤدي ، على مر الاجيال ، الى تشكيل خصوصية كل مجتمع قومي محدد ، مثلا : دور الدولة والجيش في الحياة المصرية ، اهمية مستوى الثقافة الوطنية في ايطاليا والمانيا ، ايدولوجية اقتحام الحدود واللاقومية من المجتمع الامريكي ، النزعة التجريبية الموضوعية في المجتمع الانجليزي ، استيعاب التناقضات في دائرة الشخصية القومية في المجتمع الصيني الخ ..

وجملة القول ، وهذه الصفحات القلائل ، مجرد لفت نظر الى اهمية الموضوع ، ان تصور الخصوصية الذي نقدمه في اعمالنا يهدف الى تسليح الفكر المعاصر وخاصة الفكر القومي العقلي التقدمي ، باداة علمية ، مبنية على التحليل التاريخي الموضوعي الدقيق ، لتبين ما هو اصيل حقيقة في الاستمرارية التاريخية لمجتمع قومي معين ، وما هو ، بالتالي ، القالب القومي المتميز الذي يمكن ويجب اثراؤه بعدد من المعطيات والتجارب العصرية دون غيرها كما انه ، وقد يكون هذا اهم بكثير ، يمنح الفكر المعاصر ورجاله الوسيلة الفعالة للتعجيل بعملية تطوير المجتمعات القومية بحيث تصبح عصرية قومية على اساس اصالتها الموضوعية التاريخية، ومن خلال هذه الاصالة الموضوعية التاريخية - دون تقليد الغرب المتازم حضاريا كما يبشر بذلك عملاؤه الحضاريون بين صفوفنا . وعلى وجه التخصيص فان تبين الفروق النوعية يمكننا من تبين سبل التحرك الاكثر فعالية وتجنب مناطق التازم المزمنة . اي انه يمكننا من التحرك مع حركة الجدلية الاجتماعية لمجتمعاتنا القومية في طورها المعاصر ،اي ان نواكب ونمارس عملية الصيرورة التاريخية من الداخل - من الداخل كعقول واعية صاحبة سيادة ،لا كعقول عميلة لقوى الهيمنة الخارجية التي لا تهدف الا الى الاحتفاظ بعالمنا العربي في مكانة التبعية ، بينما وجهتنا هي النهضة الحضارية.

- ٤ -

ولنحاول الان ان نطبق عمليا مفهوم الخصوصية ، علنا نتبين فعاليته في ادراك ابعاد التحرك السياسي للمجتمعات المعاصرة .

١ - ولنبدا مثلا بتطبيق مفهوم الخصوصية على المجتمع المصري. والغرض هنا بطبيعة الامر ليس هو التدليل على ان مصر بلد يمتاز بالخصوصية - ما دام كل مجتمع متاصل في التاريخ له خصوصيته

المتميزة ، وانما هو تحديد نوعية الخصوصية المصرية كما تحددت عبر التاريخ وكما تندرج امامنا اليوم .

ان المجتمع المصري ، بوصفه مجتمعا ثابتا ، تواجد على ارض مصر كما هي الان منذ نحو سبعة الاف عام ، ومن قبلها ما يقرب من عشرة الاف عام على شكل مجتمعات محلية غير موحدة في شمال وادي النيل . المجتمع المصري الثابت ، اي المجتمع المصري القومي او « القومية المصرية » عاش في سهل ضيق حول ضفتي النيل وهو محاصر بالصحاري ، وهذا كله في منطقة جغرافية مسطحة من الشلالات الى البحر الابيض . ومعنى هذا انه لا سبيل الى استعمال مياه النهر للزراعة ، اي لانتاج الغذاء الضروري لحياة المجتمع البشري ، الا بواسطة السيطرة على مجرى نهر النيل من الشلالات حتى مصبه في البحر الابيض . وهذا العمل لا سبيل الى تحقيقه الا بواسطة تنظيم مركزي موحد يستطيع ان يدبر المياه ويحفر القنوات ويبني السدود والجسور وينظم الري والصرف والملاحة النهرية ـ على اساس ان موارد الامطار محدودة تكاد لا تذكر في مناخ مصر . ومن ناحية اخرى فان موقع مصر الجغرافي ـ بين الشرق والغرب تاريخيا وفي العصر الحالي ايضا ، وبين القارات الثلاث التي تحركت فيها الانسانية بشكل اساسي حتى القرن الثامن عشر ـ جعل منها منطقة العبور التجاري والاقتصادي والانساني والعسكري ، وبالتالي جعل منها ارض الغزو المرموقة ـ وهذا ما تم بالضبط منذ الهكسوس حتى الدولة الصهيونية والاسطول السادس .

وقد فرضت هذه الظروف القاسية على مصر ومجتمعها ، عبر سبعة الاف سنة من التاريخ ، ان تحيا حياة موحدة الى ابعد درجة ، على ان تكون سلطة الدولة المركزية الموحدة هي مفتاح الوجود القومي كله : في مجال الانتاج ، عن طريق الري والزراعة والتجارة ثم الصناعة ، في مجال الوجود القومي وصيانة مصر كمجتمع قومي ثابت ، بواسطة الجيش الوطني وهو محور جهاز الدولة المصري عبر عشرات الاجيال من احمس الى محمد علي وجمال عبدالناصر . وقد فرضت ايضا ان تتحقق هذه الوحدة من صعيد الفكر والوجدان ، وهذا ما تم بالفعل : فقد تتالت حضارات ثلاث على ارض مصر ، الفرعونية ، ثم القبطية ، ثم الاسلامية العربية ، وثلاثتها تتسم بسمة التوحيدية الفلسفية والدينية مما يتفق في الاساس مع حاجة مصر التاريخية الى تحقيق اكبر قدر من الكثافة الموحدة المركزة للحفاظ على وجودها والاستمرار في اداء رسالتها .

هذا اذن هو باختصار كبير التشكيل التاريخي لنمط الاستمرارية الاجتماعية للمجتمع القومي المصري . ولا يغيب عن الباحث لحظة واحدة ما في هذا التحديد من قسوة على انماط التحرك السياسي والاجتماعي والفكري الواردة من بيئات وقارات لم تمارس استمراريتها الاجتماعية كما مارستها مصر بالذات .

وعلى وجه التحديد ، فان هذا النمط من الخصوصية يجعل لزاما على من يتصدى لتطوير الجدلية الاجتماعية في مصر ان يدرك جيدا ذلك الرباط الجذري الحيوي الذي لا يمكن فصمه بين شعب مصر ودولته ، بين جيش مصر وشعبها ، بين وحدة الوجدان والضمير والتفكير وطبقاتها الاجتماعية ومدارسها الفكرية والسياسية المختلفة . ان تطوير المجتمع المصري لا يهدف الى احلال طبقة اجتماعية مكان طبقة اخرى ، كما في بوليفيا مثلا او جزر الكاريبي ، وانما يهدف الى احلال جبهة من الطبقات والفئات الاجتماعية والمدارس والتيارات الفكرية والفلسفية المختلفة محل جبهة اخرى قد تتفق عناصرها الى حد ما مع جبهة القوى الجديدة وانما تختلف عنها تماما فيما يتعلق بكيفية علاج العروة الوثقى في قلب المجتمع المصري لتحقيق مهام الحفاظ على المجتمع المصري وتامين استمراريته ، وتمكينه من التقدم لانجاز المهام التاريخية التي يحددها لنفسه في كل مرحلة من مراحل التاريخ .

٢) ولو طبقنا مفهوم الخصوصية على اليابان لادركنا مدى فعاليته .

ان مجموعة الجزر التي تتكون منها اليابان هي مجموعة جزر صخرية ، ضحلة ، لا تكاد تعرف الانتاج الزراعي ، وهي محاصرة بوحشية شديدة بالمحيط الهادي ، مما جعل منها منطقة على مناى من موجات الغزو الاجنبية حتى منتصف القرن التاسع عشر . وفي العصر الحديث وبعد الفتح الاجنبي وبعد ثورة ميجي الصناعية التجديدية التي قامت في اليابان بعد نصف قرن من محمد علي وعلى نمط تجربته العظيمة ، ادرك اليابان انه ايضا لا يملك المواد الاولية ولا مصادر الطاقة التي هو في حاجة ماسة اليها في عصر التصنيع .

وقد ترتب على هذين العاملين الاساسيين ان المجتمع الياباني وجد نفسه مضطرا للتواجد كمجتمع وللاستمرار كمجتمع أن يفرض بين صفوفه قطاعا عسكريا شديد الاحكام تسيطر عليه مجموعة صغيرة الحجم من قادة السلاح وأصحاب الامر في تدبير انتاج ما تيسر وتوزيع محاصيله القليلة بشكل محصور لا رحمة فيه . والحق ان دراسة المجتمع الياباني المعاصر اليوم تبرهن بشكل ساطع على ان هذا النظام الاقطاعي العسكري ، وفي قلبه شخصية الامبراطور بوصفه رمزا للامة لا رئيسا للدولة ، ما زال قائما وراء سراب المداخن والمصانع ونوادي الليل المتامركة .

ان هذا النمط من الخصوصية اليابانية هو بالضبط ذلك الذي يجعل اليابان قادرا على التحرك بسرعة خارقة في أي مجال قومي يختاره ، سواء اكان الصناعة الالكترونية أو الحرب ، سواء اكان الانفتاح الدبلوماسي أو فرض أقسى صور التقشف لمواجهة ازمة البترول مثلا . وهو نفس النمط الذي يجعل الغرب في تشكك دائم وسخط دائم على اليابان .

ومن بين الظواهر الاخرى التي لا بد أن يدرسها العقل العربي على أساس مفهوم الخصوصية الذي قدمناه منذ ١٩٦٢ : الامة العربية ، النهضة العربية ، أوروبا ، الغرب ، الصين ، روسيا ، اميركا اللاتينية ، الخ ... وبطبيعة الامر لا يمكن ان نتناول هذه القضايا هنا ، وانما وجب التنبيه اليها بغية القيام بعمل جماعي تنقيبي دقيق هو الآن من مقتضيات نهضتنا .

واذا أردنا ايجاز الموضوع لقلنا : ان خصوصية مصر مثلا ليست في حانات خان الخليلي وتجمعات الطريقة الشاذلية ، وان كانت من عناصرها ، وانما في دور الجيش والشعب معا في الوجدان القومي كما ظهر ذلك بشكل ساطع يومي ٩ و ١٠ يونيو ١٩٦٧ ويوم جنازة الرئيس جمال عبد الناصر ويوم ٦ اكتوبر ١٩٧٣ وما تلاه من تحرك تاريخي هز أركان ميزان القوى في العالم اجمع .

ونقول ايضا للايجاز والتوضيح ان نهضة العالم العربي اليوم ـ من محمد علي ورفاعة الطهطاوي والافغاني حتى حرب الجزائر والسويس وفلسطين و٦ اكتوبر وما سيجيء حتما ، وهو آت ـ لا تكمن في تحقيق مجالات أوفر للاستثمارات الغربية ، ولا في جذب الملايين من السياح الى شواطئنا وانما تعمل على كسر الهيمنة الغربية المتنكرة لحضارات الشرق على مصائر العالم المعاصر واشراق الشرق الناهض بشكل فعال وقيادي في تخطيط مجرى مصائر العالم خلال عشرات الاجيال القادمة .

ومن هنا كانت اهمية مفهوم الخصوصية والنظرية الاجتماعية القائمة على أساسه .

القاهرة ـ باريس